المحاضرة الثالثة: الجملة، النص والخطاب.

تمهيد:

جاءت لسانيات النّص متممّة للسانيات الجملة، ولا يمكن أن تكون بديلا عنها، ذلك أن لكلّ علم غاية وحدود دراسةٍ، تقف عندها، فلسانيات الجملة أو نحو الجملة، حدوده الجملة، تبحث في تركيبها وأنواعها، في مستويات عدةّ؛ نحوية وصرفية ودلالية، منتهجة في ذلك مجموعة من القواعد والسنن اللغوية، والتي تختلف من لغة إلى أخرى، هذه القواعد يمكن أن تكون تعليمية، إذ من خلالها، يمكنُ تعلُّمُ كيفيةِ بناءِ جملٍ سليمةٍ تؤدي معنى محدّدا، أو العكس تتّخذ معايير لقياس سلامة بناء جملة ما، في مستوى ما، غير أنّ تلك القواعد لا تصلح لا في تعليم بناء النّص كوحدة ولا في استعمالها كمقاييس لاختبار سلامة نصّ منجز، فوجب عندها البحث عن قواعد تصلح لتعليم وتحليل النصّ كوحدة، فكانت لسانيات النّص.

فالجملة وحدة أساسية لبناء النّص، ولا يمكن أن يكون النّص سليما، إلا بسلامة الجملة، وهذا لا يعني بالضرورة أن مجموعة من الجمل السليمة تشكلُ نصّا سليما، فسلامة الجملة ضمن مهام نحو الجملة، وسلامة النّص ضمن مهام لسانيات النّص، وسنعرض لاحقا للقواعد المقترحة من قبل علماء لسانيات النّص، التي تحقق نصّية النّص، لكن قبل ذلك، يحسن التّطرق لعدّة مصطلحات في هذا العلم، بدءا بالجملة فالملفوظ فالتلفظ ثمّ النّص والخطاب، لنرجئ مفهوم لسانيات النّص للمحاضرة الثّانية.

الجملة:

يمكن النّظر للجملة من عدّة زوايا، من منظور مفهومها في التراث النّحوي القديم، كذلك من منظور وجهات متعدّدة في لسانيات النّص الحديثة:

كثيرا ما يقرن عند النحاة قديما بين مصطلح الجملة والكلام، وكانوا في ذلك على قسمين: "ذهب قسم من النحاة إلى أن الكلام والجملة هما مصطلحان لشيئ واحد فالكلام هو الجملة، والجملة هي الكلام، وذلك ما ذكره ابن جنّي في (الخصائص) وتابعه

عليه الزّمخشري في (المفصل)...إلا أن الذي عليه جمهور النّحاة أن الكلام والجملة مختلفان، فإن شرط الكلام الإفادة ولا يشترط في الجملة أن تكون مفيدة وإنما يشترط فيها إسناد سواء أفاد أم لم يفد"[1] والاسناد يكون بين المسند والمسند إليه ويعتبران ركنا الجملة، ففي الجملة الاسمية بين المبتدأ والخبر، وفي الفعلية بين الفعل والفاعل.

أما من منظور لسانيات النّص فيذكر الأزهر الزناد في كتابه، (نسيج النّص) :" فالجملة نظريا نوعان: -جملة نظام (system sentence)، وهو شكل الجملة المجرد الذي يولّد جميع الجمل الممكنة والمقبولة في نحو لغة ما، و- جملة نصية (Text sentece)وهي المنجزة فعلا في المقام"[2] والأزهر هنا يتحدث عن الجملة وعن الملفوظ، فالجملة هي تم الاصطلاح عليه بـ (جملة نظام)، وهي الجملة التي ينظر إليها من خلال تمام مكوناتها النّحوية من فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر، ومثل هذه الجملة ما يستعمله غالبا معلموا النّحو؛ فعندما يقدم المعلم -مثلا- درس أنواع الخبر، فسيستحضر عدّة جمل على سبيل المثال:

- الهدهد طائر جميل. (مبتدأ وخبر مفرد + فضلة).
- الهدهد بين الأغصان: (مبتدأ والخبر شبه جملة).
- الهدد تاجه ملون: (مبتدأ والخبر جملة اسمية).
- الهدد يحرك جناحه: (مبتدأ والخبر جملة اسمية).

فمجموع الجمل الآنفة لم ترد في سياق حقيقي، فلو أن متنزهين كانا في حديقة ورأى أحدها الهدهد فأعجبه فخاطب رفيقه قائلا: الهدد طائر جميل، لصارت الجملة هنا جملة نصيّة.

النّصّ والخطاب:

النصّ لغة: أورد ابن منظور في مادة نصص، عدّة معاني لهذا الجذر نقتطف منها ما يعنينا وذلك في قوله:"النص : رفعك الشيء، نص الحديث ينصه نصا : رفعه . وكل ما

[1] - فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية، تأليفها وأقسامها، ص12/11.
[2] - الأزهر الزناد، نسيج النّص، ص14.

أظهر فقد نص ... وأصل النص أقصى الشيء وغايته ... نصصت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض، وكل شيء أظهرته فقد نصصته... ونص كل شيء منتهاه"[3]، ولعل من أحسن ما تم به ربط المعنى المعجمي العربي بمفهوم النّص الحديث ما ذكره الأزهر الزّناد، يقول: " وهذه المعاني كلها تعود إلى جامع واحد هو (الارتفاع) أو هو (أَظْهَرُ مكونات الشيء) أو (أقصاها)، ويمكن أن نتوسّل بما سبق في فهم إجراء (النّص) في الاصطلاح على كائن لغوي، فهو يطلق على ما يَظْهَرُ المعنى أي الشكل الصّوتي المسموع من الكلام أو الشّكل المرئي منه عندما يترجم إلى مكتوب،"[4]، "أمّا النّص (Texte-Text) في الثقافة الغربية، فيعني نسيجا لفظيا أو مكتوبا، في شكل جمل وفقرات ومتواليات مترابطة ومتراصة ومتسقة ومنسجمة"[5]

يذكر صبحي إبراهيم الفقي في كتابه:(علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق ج 1) : أن مصطلح (النّص) من أكثر المصطلحات التي لم يستقر علماء النّص على تعريف محدّد لها[6]. وهذا ما يكاد يُجمع عليه أغلب الدّارسين، سواء كانوا من الغرب أم من العرب.

ولعل ما يحدث التّعدد والتباين في مفهوم النّص وتعريفه، هو التباين بين الأسس التي يتبناها توجه لساني ما عن توجّه آخر، وقد أثار هذه القضيّة (كلاوس برينكر) (Klaus Brinker)، إذ يرى أن (النّص) يُنظر إليه من اتجاهين رئيسيين: اتّجاه قائم على أساس النّظام اللغوي، واتجاه قائم على أساس نظريّة التّواصل، فالأول وينسبه للتوجه البنيوي والنحو التّحويلي التوليدي، الذي يعرّف النّص بأنه تتابع متماسك من الجمل، وهو العلامة اللغوية الأساسية، والثّاني وتمثله البراغماتية فالنص عندهم ليس تتابعا جمليا مترابطا نحويا فحسب، بل هو فعل كلامي يحاول المتكلم أو الكاتب أن ينشئ به علاقة مع السامع أو القارئ،[7] وهنا يقترح (برينكر) مفهوما مدمجا يعرّف فيه النّص: "يَسِمُ المصطلح (نص) تتابعا محدودا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها، وتشير بوصفها كلّا إلى وظيفة تواصلية

---

[3] - ينظر، ابن منظور لسان العرب، الجذر (ن ن ص).
[4] - الأزهر الزناد، نسيج النّص، ص12.
[5] - جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النّص، ص6.
[6] - ينظر، صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النّصي بين النظرية والتطبيق، ج 1، ص23.
[7] - ينظر، كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، ص28-34

مدركة"[8] وهو بذلك يدمج التوجه اللغوي مع التوجه التّواصلي. لا يعني أن هذين التّوجهين اللسانيين، هما الوحيدان، بل هناك كثير ممن الزوايا الأخرى التي نظر إليها بعض اللسانيين للنص، من ذلك تعريف (جوليا كريستيفا) الذي عرفته من زاوية اهتمامها بالتّناص: "بأنه نظام لغوي، يقوم الكاتب فيه بإعادة توزيع نظام اللغة، وذلك بإقامة علاقات بين الكلام التّواصلي الذي يهدف إلى الإبلاغ المباشر، وبين الملفوظات القديمة والمعاصرة"[9] وتعني بإعادة توزيع نظام اللغة، أي باستعمال آخر لنفس اللغة مع إحداث علاقات جديدة للفظ المستعمل فيما يتطلبه التّواصل.

بين النّص والخطاب:

إن إدراكنا لمفهوم الملفوظ والتّلفظ، يسهم في فهمنا للنص والخطاب، إذ يقابل الملفوظُ النّصَّ، كما يقابل التّلفّظُ الخطاب[10]، وقد عرض الباحث المغربي، جميل حمداوي، مقارنة مبسّطة بين الخطاب والنّص جاء فيها:

"هناك من الباحثين من يرادف بين النص والخطاب، بيد أن هناك من يميز بينهما بشكل دقيق، فالخطاب مرتبط بالتلفظ والسياق التّواصلي، في حين، يتميّز النّص بكونه مجردا عن هذا السياق بشكل كلي"[11]

وقد ميّز ميشيل آدم (M Adam) بينهما بهذا الشّكل الرياضي:

الخطاب= النّـــص + ظروف الإنتاج

النّـــص= الخطاب – ظروف الإنتاج

وبتعبير آخر، فالخطاب، بكل تأكيد، ملفوظ يتميز بخاصيات نصية، لكنه يتميز أساسا بوصفه فعلا خطابيا أنجز في وضعية معينة (مشاركون، مؤسسات، موضع، زمان)..أما النّص فهو بالمقابل، موضوع مجرّد ناتج عن نزع السياق عن الموضوع المحسوس...لنقل، بعبارة

---

[8] - ينظر، كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص،ص34.
[9] - محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص23.
[10]- ينظر، عبد الواسع الحميري، ما الخطاب وكيف نحلّله، ص13.
[11] - جميل حمداوي، محاضرات في لسانيات النّص، ص8.

أخرى، إن الموضوع الذي هو الخطاب يدمج السياق: أي الظروف الخارج لسانية المنتجة له، في حين أنّ النّص يبعدها بوصفه ترتيبا لقطع تعود إلى البعد اللساني"[12] هذا يعني أن الخطاب يتطلب مرسلا ومتلقيا، وظرفا زمانيا وقع فيه، أما النّص فهو ملفوظ يمكن أن يرجأ إلى أي زمن، ويمنك أن يرسله أكثر من مرسل، ويتلقاه اكثر من متلقٍ عبر حقبات عديدة من الزّمن.

نخلص مما تقدم من عرض لبعض المصطلحات اللسانية، أن معظمها لم يتمّ الإجماع عليه بمفهوم قارّ، وهذا أمر طبيعي، كون اللسانيات كالموشور يمكن أن يُنظر إليها من عدّة أوجه، ولكل وجه صورة، وهذا سينعكس حتماً على مصطلحاتها، سواء من حيث النظر إليها عبر حركة الزمن، بين القديم والحديث والمعاصر،(زمنيا) أو من حيث التوجهات والمدارس اللسانية المختلفة في الآن الواحد(تزامنيا).

[12] - ماري آن بافو وجورج غليا سرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، ص315.